وتكونها · فالامة لا تتكون بالاضطهاد والقهر الذي تمارسه الطبقة القائدة · وفشل تجربة الوحدة المصرية السورية يقدم درسا على العجز عن تحقيق الوحدة ، اي تحقيق الدولة الامة · « الذي ينقل الشعب من حالة التشتت والتفتت الى الوحدة القومية ، ليس الطبقة القائدة الموحدة · انه الحلف الشعبي الطبقي بين كل الفئات التي كانت تسمى العامة ، وهي الاغلبية المنتجة المضطهدة النهضة ، اثبتت عجزها عن تكوين الوحدة القومية · بل زادت في التفتت بقيادة البرجوازية دائما ، كانت بالاساس ثورة شعبية » ·

ان الفشل الساحق في الوصول الى الدولة ـ الامة العربية لا يكشف فقط . ضراوة المواجهة التي قادتها الامبريالية الغربية ضد الشعب العربي ، بل يكشف اساسا ، طبيعة التكوين الاجتماعي والسياسي والايديولوجي للنخبة التي قادت التحديث العقلي والسياسي والديني ، بالتحالف مع الغرب · فالبرجوازية الطفيلية الريعية ، بمختلف فئاتها ، قادت الامة الى الهزيمة الشاملة · وما تاريخها البائس ، الا التعبير المباشر والملموس عن عجزها واستبداديتها · فباسم رفض السيطرة العثمانية ، قادت الامة في حرب خاسرة ضد نفسها · اي قادت عبر اصلاحها واصلاحيتها ، الى تهميش الجماهير ، عبر بناء دولة « حديثة » اكثر استبدادية · وقادت بالتالي الى عودة الاشكال القديمة للتضامن الاجتماعي الى البروز ، او الى استحداث اشكال تأخذ بعدا جديدا (الطائفية السياسية) ، كقاعدة لنمو التفتت ، بالتحالف مع الغرب · هكذا يصبح تاريخ الحركة القومية هو تاريخ تكون النخبة العربية الحديثة · ولا يمكن فهم هذا التكون ، بمعزل عن عاملين اساسين : التكون في التجارة والغزو الاقتصادي والفكري والسياسي · والتكون داخل اجهزة الدولة · وفي التكونين كان الانهيار العثماني الشامل ، هو بداية التحول التدريجي والبطيء من تراجيدية الافغاني ، الى اصلاحية محمد عبده ، الى تنصيب الشريف حسين زعيما « للثورة العربية الكبرى » ·

لكن الى جانب هذا التاريخ الرسمي هناك تاريخ اخر ، تاريخ المقاومة العنيدة في انتفاضات متلاحقة . قامت بها جماهير الفلاحين ضد السيطرة الغربية ، التي كانت تعني اخراجها الرسمي من الواقع التاريخي · هذا التاريخ . الذي لم يكتب . هو الاخر تاريخ هزائم متتالية · لكنه يشكل مجموعة من اللحظات المضيئة ، التي تقدم مؤشرا على قدرة الجماهير على المقاومة الطويلة النفس ·

ان فشل الاصلاح في تحقيق اهدافه المعلنة ، يكشف الاهداف غير المعلنة التي نجح في تحقيقها · فينكشف عجز الانماط الثلاثة التي رفع الاصلاح لواءها · فالاصلاح الديني اوصل الى ادخال الرأسمالية الطفيلية وتبريرها · ان النقد